Language as Colonial Tool: How Language Shapes, Subjugates Consciousness of Nations

■ Dr. Ahmad Ibish[1]

Abstract

Language was not merely a neutral medium of communication within the colonial project. Rather, it functioned as a powerful instrument for subjugating populations and dismantling their cultural identities.

By imposing the colonizer's language as the official medium in administration, education, and the judiciary, a deliberate epistemic rupture was created between colonized societies and their cultural heritage. Mastery of the colonizer's language became a prerequisite for access to prestigious social and economic positions.

This linguistic policy was not only aimed at facilitating colonial governance, but also at cultivating local elite fluent in the colonizer's tongue, elite socially and culturally distanced from the so-called "natives." The result was a deepening of class divisions and a weakening of social cohesion within colonized societies.

In contrast, many national liberation movements turned to the revival of indigenous languages as a form of resistance. This was evident, for example, in Algeria, where Arabic education was intensified during the war of independence, or in India, where the Hindi movement emerged as a response to English dominance. In this way, language itself became a central battleground in the struggle for liberation, a site of contestation between cultural survival and colonial domination. As the Algerian thinker Malek Bennabi said: "Colonialism does not merely seize land, it seizes consciousness through language[2].

Keywords: Language, Colonialism, Liberation, Cultural Identity, Hegemony.

1 - Syrian academic researcher, PhD in History and a Master in Philology, Department of Textual Criticism. This research was written using the references of the Akdeniz University Library in Antalya, Turkey. I thank all the staff at the aforementioned library for their cooperation and kind treatment.

2 - Malek Bennabi: Conditions of the Renaissance, pp. 73-75.

اللغّة بوصفها أداةً استعماريّة: كيفَ تُشكّل اللغة وعيَ الشعوبِ وتُخضعُها؟

■ أ. د. أحمد إيبش[1]

ملخّص

لم تكن اللّغة مجرّد وسيلة عابرة للتّواصل في المشروع الاستعماري، بل كانت أداة فعّالة لإخضاع الشّعوب وتفكيك هويّاتها الثقافيّة. فمن خلال فرض لغة المُستعمِر باعتبارها لغةً رسميّة في الإدارة والتّعليم والقضاء، جرى إحداث قطع معرفي بين المجتمعات المُستعمَرة وتُراثها؛ حيثُ صار إتقان لغة المُستعمِر شرطًا للوصول إلى المراكز الاجتماعيّة والاقتصاديّة المرموقة. هذه السّياسة اللّغويّة لم تهدف فقط إلى تسهيل إدارة المُستعمرات، بل أيضًا إلى خلق نُخبة محلّيّة مُتحدّثة بلغة المُستعمِر، منفصلة عمّن يُطلق عليهم «الأهالي»، ما عمَّق الفجوات الطّبقيّة وأضعف التّماسك الاجتماعي في تلك البلاد. وعلى النّقيض، لجأ كثير من حركات التّحرّر الوطني إلى إحياء اللّغات المحلّيّة بوصفها فعلَ مقاومة، مثلما حدث في الجزائر مع تكثيف تعليم اللّغة العربيّة خلال الثّورة التّحريريّة، أو في الهند مع حركة «الهنديّة» لمقاومة الهيمنة الإنكليزيّة. وهكذا، أصبحت المعركة اللّغويّة جزءًا جوهريًا من معركة التّحرّر؛ حيثُ مثّلت اللّغة ساحة للصّراع بين إرادة البقاء الثّقافي وإرادة الهيمنة. وكما يقول المفكّر الجزائري (مالك بن نبي): «الاستعمار لا يكتفي بسرقة الأرض، بل يسرق الوعي نفسه عبر اللّغة.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الاستعمار، التحرّر، الهويَّة الثقافيَّة، الهيمنة.

---

١ - باحث أكاديمي سوري، يحمل دكتوراة في التّاريخ، وماجستير في الفيلولوجيا، قسم النّقد النّصّي.
تمّت كتابة هذا البحث بالاستعانة بمراجع مكتبة جامعة (آق دنيز) Akdeniz Üniversitesi في مدينة أنطاليا، تركيّا. وأشكر جميع القائمين على المكتبة المذكورة على تعاونهم ومعاملتهم اللّطيفة.
٢- مالك بن نبي: شروط النّهضة، ص ٧٣-٧٥.

مقدّمة

تبيّن هــذه الدّراســة التّفكيكيّــة أنّ اللّغة ليســت مجرّد وعــاء محايد للمعنى في السّــياقات الاستعماريّة، بل هي جهاز حُكمٍ ينتج التّراتبيّات ويثبّتها ويقوّيها عبر مؤسّسات المدرسة والقضاء والإدارة والسّوق، ثم عبر المنصّات الرّقميّة والذّكاء الاصطناعي. سوف نعمد أدناه إلى عقد إطار نظري يجمع «السّــوق اللّغويّة» و«العُنف الرّمزي» عنــد (بورديو-Pierre Bourdieu)، و«أنظمة الخطــاب» عند (فوكــو-Michel Foucault)، و«الأجهزة الأيديولوجيّة» عند (ألتوســير-Louis Pierre Althusser)، مع أطروحات (فانون-Frantz Fanon) و(سبيڤاك-Lawrence E. Spivak) و(بنديكت أندرسون-Benedict Richard Anderson). وسوف نتفحّص تاريخ أدوات الهيمنة اللّغويّــة: التّعليم، والقضاء، والخرائط، والمعاجم، والتّرجمة، وإصلاح الأبجديّة. ثمّ نطبّق على بعض الدّراسات حالة مقارنة: (الهند البريطانيّة، الجزائر/المغرب، أميركا الشّماليّة/أستراليا، ويلز/إيرلنــدا، شرق أفريقيا، أمــيركا اللّاتينيّة) قبل الانتقال إلى الحاضر الرّقمــي بوصفه فصلاً جديدًا من «استعمار البيانات»، وتمثيلات اللّســان في الخوارزميات. ونخلص إلى أجندة عدالة لغويّة تستبدل أحاديّة اللّسان بـ«كونيّة متعدّدة» تؤسَّس مرجعيّة أكاديميّة مؤسّسيّة في التّعليم، والقضاء، والبحث، ومنصّات الشّبكة العنكبوتيّة.

أولًا: إعادة تركيب الواقع الرّمزي

لم يكن الغزو الاستعماري مجرّد حدث عســكري يهدف إلى السّيطرة على الأرض والموارد فحسب، بل كان مشروعًا حضاريًّا شاملاً يطمح إلى إعادة صياغة الإنسان والمجتمع والمكان، وفق رؤية المُســتعمِر ومصلحتــه. وفي قلب هذا المــشروع، تبرز اللّغة بوصفها أداة التّأسـيس

والهيمنــة الأكثر ديمومــة وتأثيرًا. يجادل هذا البحث بأنّ اللّغة في السّــياقات الاســتعماريّة وما بعد الاســتعماريّة ليســت وعاءً محايدًا للمعرفــة أو مجرّد أداة للاتصال، بــل هي «جهاز حُكم» متكامل (Apparatus of Rule). إنها بالأحرى نظام رمزي ينتج التّراتبيات ويثبّتها، ليس فقط عبر المؤسّسات التّقليديّة، كالمدرسة والقضاء والإدارة، بل هي امتداد إلى الفضاء الرّقمي المُعاصر؛ حيث تُبرمج الخوارزميات، وتُصمّم واجهات المُستخدم.

يبدأ البحــث بتفكيك الإطار النّظري الذي يجمع بين سوســيولوجيا (بيير بورديو)، وتأريخيّة (ميشيل فوكو)، وتحليل (ألتوســير) للأجهزة الأيديولوجيّة، منتهيًا بأطروحات ما بعد الاستعمار لـ (فانون) و(سبيڤاك-Spivak) و(نغوغي وا ثيونغو-Ngũgĩ wa Thiong'o). وينتقل بعدها إلى تشريح الأدوات التّاريخيّة للهيمنة اللّغويّة، من التّعليم والقانون، إلى التّرجمة وإصلاح الكتابة، مع تقديم قراءات معمّقة لدراسات حالة من الهند البريطانيّة إلى الجزائر، ومن المدارس الدّاخليّة في أميركا الشّــماليّة إلى سياســات التّحرير اللّغوي في تنزانيا. ثمّ لا يتوقف البحث عند التّحليل التّاريخي، بل يغوص في التّشــخيص المعاصر لـ «الاســتعمار الخوارزمــي»، وتحيّزات الذّكاء الاصطناعي، ليخلص في النّهايّة إلى طرح أجندة لعدالة لغويّة تقوم على فكرة «الكونيّة المتعدّدة» (Plural Universalism) بوصفهــا بديلاً عمليًّا لإحياء التّعدّديّة اللّغويّة، وإدارتها مؤسّســيًا في التّعليم، والقضاء، والبحث، والمنصّات الرّقميّة. كما يهدف هذا البحث، من خلال هذا المسار، إلى المُســاهمة في تفكيك الإرث المستمرّ للاســتعمار اللّغوي، واقتراح سُبُل للمقاومة وإعادة البناء في الحاضر والمستقبل.

ثانيًا: الإطار النّظري: تشريح آلة الهيمنة الرّمزيّة

لا يمكن فهم تعقيدات الهيمنة اللّغويّة دون الاعتماد على ترسانة نظريّة متعدّدة التّخصصات. يوفّر كلّ منظر عدسةً مختلفةً لرؤيّة الآليّة ذاتها. وفي البداية، دعونا أوّلاً نراجع هنا أهمّ النّظريات:

١. (بيير بورديو): الاقتصاد السّياسي للغة

يطوّر عــالم الاجتماع الفرنسي (بيير بورديو) مفهوم «السّــوق اللّغويّة»؛ حيث تُتداول الكلمات

ليس فقط لمعانيها، بل لقيمتها الرّمزيّة. في هذا السّوق، تُعرِّف المؤسّسات المهيمنة (مدرسة الدّولة، الإعلام الرّسـمي) ما هو «اللّسان الشّرعي» (Legitimate Language). هذا اللّسان ليس طبيعيًا بل هو نتاج تاريخي، وغالبًا ما يكون لهجة الطّبقة الحاكمة التي تمّ إضفاء الطّابع المعياري عليها. من يمتلك هذا اللّسان يكتسب «رأسمالاً رمزيًا» يمكن استثماره في الحصول على مناصب وامتيازات. أمّـا من لا يمتلكه، فأمامه خياران: إمّـا الصّمت، أو التّحدّث بلغة «مشروعـة»، ولكن بنبرة تفضح أصلـه «المنحدر» (اللّكنة، الأخطـاء النّحويّة)، ما يعيد إنتاج دونيّته. يسـمّي (بورديو) هذه العمليّة «العُنف الرّمزي»؛ لأنها تُمارَس بموافقة المضطّهدين أنفسهم، الذين يدركون ضمنيًا «قواعد اللّعبة» ويخضعون لها. في السّـياق الاستعماري، تُفرض لغة المُستعمِر باعتبارها اللّسان الشّرعي الوحيد، بينما تُحوَّل اللّغات المحلّيّة إلى لهجات «دُونيّة» أو «عامّيّة»، لا مكان لها في المجال العام[1].

٢. (لوي ألتوسير): المدرسة جهاز أيديولوجي للدولة

يوسّـع الفيلسـوف الفرنسي (لوي ألتوسـير) تحليل (بورديو) بالتّركيز على الـدّور المركزي للمدرسـة. فيرى أنّ «أجهزة الدّولة الأيديولوجيّة» (مثل التّعليـم، الدّين، الإعلام) هي الأدوات الرّئيسة لإعادة إنتاج علاقات الإنتاج والهيمنة. والمدرسة، تحديدًا، هي التي تعلّم الأطفال الطّاعة والتّسلسـل الهرمي. لكنّها لا تفعل ذلك بشكل أسـاس من خلال المناهج (المحتوى)، بل من خلال الممارسـة اليوميّة. إنها تفرض لغـة معيّنة، وطريقة جلوس، ومواعيـدَ، ونظام عقوبات. بمعنى آخر، الشّكل أهمّ من المحتوى. في المُستعمرة، كانت المدرسة هي الخطّ الأمامي لفرض لغة المُسـتعمِر. لقد كان الأطفال يتعلّمون ليس فقط لغة المُسـتعمِر، بل يتعلّمون أنّ لغتهم الأم هي سـبب تأخّرهم، وبالتّالي يتعلّمون احتقار ذواتهم وثقافتهم. بهذه الطّريقة، أنتجت المدرسة «موضوعات» (Subjects) مُطيعة للسّلطة الاستعماريّة[2].

---

1 - Bourdieu, Pierre, Language and Symbolic Power, pp. 43-65.

Bourdieu, Pierre, "The Economics of Linguistic Exchanges." Social Science Information 16 (6): pp. 645–68.

2 - Althusser, Louis, "Ideology and Ideological State Apparatuses" (Notes towards an Investigation), pp. 127-186.

٣. (ميشيل فوكو): الخطاب وإنتاج الحقيقة

إذا كان (بورديو) و(ألتوسير) يهتمّان بكيفيّة فرض اللّغة، فإنّ المؤرّخ الفرنسي (ميشيل فوكو) يهتمّ بما يجري قوله فيها. يرى (فوكو) أنّ المعرفة والسُّلطة متلازمان؛ فكلّ خطاب (نظام من القواعد يحدّد ما يمكن قوله في مجال معيّن، مثل الطّبّ أو علم الجريمة أو الاستشراق) يُنتج «الحقيقة» الخاصّة به. وهذه «الحقيقة» هي التي تعطي الشّرعيّة لممارسة السّلطة. في المُستعمَرة، أنشأ المُستعمِر أنظمة خطاب عن «الهمجيّة»، و«الكسل»، و«الغدر» الشّرقي. هذه الخطابات لم تكن مجرّد تحيّزات، بل كانت أنظمة معرفة «علميّة» ظاهريًا (مدعومة بالأنثروبولوجيا، الجغرافيا، اللّغويات) وظيفتها تبرير الحكم الاستعماري. واللّغة هنا هي وسيلة نقل هذا الخطاب، وإضفاء الطّابع المؤسّسي عليه. وبناءً عليه، لم يكن الهدف مجرّد تعليم الإنكليزيّة أو الفرنسيّة، بل تعليم العالم وفقًا لرؤية المُستعمِر وتصنيفاته[١].

٤. منظّرو ما بعد الاستعمار: الهويّة، والتّابع، وتفكيك الذّهن

أ. (فرانتز فانون): في كتابه «بشرة سوداء، وأقنعة بيضاء»، يحلّل عالم النّفس الفرنسي "أسود البشرة" (فرانتز فانون) الصّراع النّفسي - الوجودي للشّخص المُستعمَر. تبنّي لغة المُستعمِر ليس فعلاً محايدًا؛ فهو يعني تبنّي عالم القيم والثّقافة الخاصّ به. إنه يشبه ارتداء «قناع» أبيض على جلد أسود. ومن جرّاء ذلك، تصبح اللّغة الأمّ مرتبطة بالعار والدّونيّة. وهذا بدوره يخلق انقسامًا في الذّات، وكراهيّة داخليّة عميقة[٢].

ب. (نغوغي): في كتابه «تفكيك العقل»، يذهب الأكاديمي الكيني (نغوغي وا تيونغو) إلى أبعد من ذلك، مجادلاً أنّ عمليّة الاستعمار اللّغوي هي عمليّة «قتل روحي». إنه في واقع الأمر يدعو إلى مقاطعة جذريّة للغة المُستعمِر في الأدب والفكر في سبيل استعادة الذّات الإفريقيّة؛ إذ إنّ الكتابة بلغة المُستعمِر، بالنّسبة له، هي الاستمرار في

1 - Foucault, Michel, The Archaeology of Knowledge & The Discourse on Language, pp. 21-30, 79-92.

2 - Fanon, F., Black Skin, White Masks pp. 17-40.

التّحدّث بلسان الغازي[1].

ج. (غاياتري سبيڤاك): تطرح الباحثة الهنديّة (غاياتري تشاكرافورتي سبيڤاك -Gayatri Chakravorty Spivak) السّؤال المشهور: «هل يمكن للتّابع أن يتكلّم؟» (Can the subaltern speak?)، وجوابها هو أنّه حتّى عندما يحاول التّابع (الفلاّحة الهنديّة، المرأة المُستعمَرة) التّحدّث، فإنّ صوتها يُترجم، ويُفسّر، ويُدمج داخل الأنظمة الخطابيّة للغرب (الفكر النّسوي الغربي، النّظريات اللّيبراليّة). وبذلك، يجري «تمثيلها» من قبل الآخرين، ولكنّها نادرًا ما تكون قادرة على تمثيل نفسها. وعنف الوساطة هذا يجعل صوتها الحقيقي غير مسموع[2].

٥. اختراع اللّغات وإعادة تشكيلها: تفكيك المفهوم ذاته

يقدّم (سينفري ماكوني- Sinfree Makoni) و(ألاستير بينيكوك- Alastair Pennycook) نقدًا جذريًا، يفيد بأنّ مفهوم «اللّغة» بحدّ ذاته – باعتباره كيانًا منفصلاً ومستقرّاً ومرتبطًا بهويّة قوميّة – هو مفهوم حديث، وُلد في أوروبا، وجرى تصديره عبر الاستعمار. بينما في إفريقيا وآسيا، كانت الحدود بين «اللّهجات» و«اللّغات» أكثر مرونة. فقام المُستعمِرون واللّغويون، بمساعدة النُّخب المحليّة، بـ «اختراع» لغات معياريّة (Standard Languages) من خلال القواميس والنّحو المعياري، وفي الوقت نفسه قاموا بتقسيم سياقات لغويّة متّصلة (continuums) إلى كيانات منفصلة، ما خلق هويّات «قوميّة» جديدة، وغالبًا ما أشعل نزاعات. هذا المنظور «التّفكيكي» يشكّك في الأسُس الطّبيعيّة للّغة، ويرينا كيف أنّ السّياسة اللّغويّة هي دائمًا سياسة معرفيّة[3].

1 - Ngũgĩ wa Thiong'o, Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature, 4-20.

2 - Spivak, G.C., Can the Subaltern Speak? In Marxism and the Interpretation of Culture, pp. 271-273, 307-310.

3 - Makoni, S., & Pennycook, A. Disinventing and Reconstituting Languages. Multilingual Matters, pp. 1-25.

ثالثًا: أدوات الحكم اللّغوي: آليّات تفكيك العالم وإعادة تركيبه

لم تكــن الهيمنــة اللّغويّة مجــرّد فكرة مجرّدة، بل جــرى تفعيلها عبر مجموعــة من الأدوات المُنهجة والمترابطة، التي شكّلت ما يمكن تسميته «تقنيّة حُكم». كانت هذه الأدوات تشريعيّة، وتعليميّة، وبيروقراطيّة، هدفت إلى إعادة تشكيل الوعي والواقع اليومي للمُستعمَرين.

١. التّعليم: المصفاة العليا للشّرعيّة

كانت المدرســة الاســتعماريّة هي الأداة الأكثر فعاليّة وطولاً في الأمد. لم يكن الهدف تعليم المعارف فحسب، بل كان «تأديب» الأجساد والعقول.

أ. صناعة النُّخب والوسطاء: تجسّدت هذه الاستراتيجيّة في «محضَر ماكولاي في التّعليم» (١٨٣٥) في الهند، ونصّت صراحة على هدف إنشاء «طبقة من الأشخاص هم هنود في الدّم واللّون، ولكنّهم إنكليز في الذّوق، والآراء، والأخلاق، والفِكر». هؤلاء الوســطاء سيســهّلون الحكم على الملايين، وســيكونون منفّذين مُخلصين للإدارة الاستعماريّة. جرى تفضيل التّعليم الإنكليزي للطّبقات العليا والمتوسّطة، بينما تُرك التّعليم «المحلّي» للجماهير في حالة متخلّفة متعمّدة، ما خلق شرخًا طبقيًا-لغويًا لا يزال قائمًا[1].

ب. الغمر اللّغوي والعقاب الجسدي: في المُستعمرات الاستيطانيّة مثل أميركا الشّماليّة وأستراليا، اتّخذت السّياســة التّعليميّة شكلاً أكثر وحشيّة؛ إذ جرى إنشاء «المدارس الدّاخليّــة الهنديّة»، حيــث كان يجري انتزاع الأطفال قسرًا من أسرهم. كان الشّــعار الصّريح لأحد مؤسّــسي هذه المدارس، (ريتشــارد هنري بــرات- Richard Henry Pratt)، هو «اقتل الهندي فيهم، وأنقذ الإنسان». وبناءً على ذلك، جرى حظر التّحدّث باللّغات الأصليّة تحت طائلة العقاب البدني القاسي (الضّرب، الحرمان من الطّعام) والنّفسي (إذلال الطّفل، بإجباره على ارتداء لوحة عار على صدره). لقد كان الهدف

1 - Macaulay, T.B., Minute on Indian Education (1835), pp. 1-5.

هو اجتثاث الهويّة من جذورها[1].

ج. تأسـيس التّراتبيّة المعرفيّة: جرى تصميم المناهج لتعليم تاريخ المُستعمِر، وأبطاله، وأدبه على أنه قمّة الحضارة، بينما جرى تصوير تاريخ السّكان الأصليين وثقافتهم على أنها بدائيّة، وهمجيّة، أو غير ذات أهميّة. فنرى أنّ اللّغة المحليّة، إن دخلت المدرسة، كانت تُدرّس بصفتها لغة أجنبيّة أو موضوعًا تراثيًّا، ما عزّز فكرة أنها أدنى وأقلّ قيمة.

٢. القضاء والإدارة: تشريع التّهميش

كانت اللّغة هي مفتاح الوصول إلى الحقوق والعدالة، وكان حرمانها أداة قويّة للإقصاء.

أ. لغـة القانون والحقـوق: جعلت الإدارة الاسـتعماريّة لغة المُسـتعمِر هي اللّغة الرّسـميّة الوحيدة للمحاكـم والدّواوين الحكوميّة. وهذا يعني أنّ المسـتندات القانونيّة، واللّوائح، وعقود المِلكيّة، وشـهادات الزّواج والوفاة قد كُتبت جميعًا بلغـة لا يفهمها غالبيّة السّـكان. لم يكن بمقدور الشّـخص الـذي لا يُتقن لغة المُسـتعمِر فهم القوانين التي تحكمه، أو الدّفاع عن نفسـه في المحكمة بشكل فعّـال، أو المطالبة بحقوقـه الملكيّة. من حيث النّتيجة، خلق هـذا نظامًا قانونيًا منقسمًا: نظام «حديث» للمستوطنين والنُّخب المتعلّمة، ونظام «عُرفي» مهمّش للسّكّان الأصليين.

ب. التّرجمة أداة تحكّـم: لم تكن التّرجمة خدمة محايدة؛ إذ كان المترجمون تابعين للإدارة الاسـتعماريّة، وكانوا يترجمـون فقط ما تراه السّـلطة ضروريًا. وغالبًا ما كانت التّرجمات انتقائيّة ومشوّهة لتخدم أغراض المُستعمِر. كانت عمليّة التّرجمة نفسـها تؤكّد على هيمنة لُغة المصدر (لغة المُستعمِر)، ودونيّة لُغة الهدف (اللّغة المحلّيّة)[2].

1 - Truth and Reconciliation Commission of Canada. (2015). Honouring the Truth, Reconciling for the Future: Summary of the Final Report, 234-240.

2 - Rafael, V.L., Contracting Colonialism, 110-134.

٣. الخرائط والمعاجم: استعمار الفضاء والتّصنيف

أ. تسمية الأماكن: قام المستكشفون والإداريون الاستعماريون بإعادة تسمية المعالم الجغرافيّة (الجبال، الأنهار، المدن) بأسماء من لغتهم، أو أسماء شخصيّات من تاريخهم[١]. ولا ريب أنّ هذه العمليّة لم تكن بريئة، بل كانت تأكيدًا رمزيًا على المِلكيّة والسّيادة. لقد محت الأسماء الأصليّة التي حملت في طيّاتها ذاكرة المكان، وتاريخه، ورؤية العالم الخاصّة بسكّانه، واستبدلتها برموز تغريبيّة. وهكذا، أصبحت الخريطة أداةً لإنشاء واقع جديد؛ حيث يبدو أنّ الأرض «مُكتشفة» و«مُمهّدة» من قِبَل المُستعمِر[٢].

ب. المعاجم والتّصنيف «العلمي»: قام اللّغويون والمُستشرقون بتجميع قواميس اللّغات المحليّة. وبينما حفظ هذا العمل بعض المعارف، لكنّه غالبًا ما كان يقوم بـ «تجميد» اللّغة وتقنينها وفقًا للمعايير الأوروبيّة. جرى تصنيف الكلمات ضمن فئات (categories) مفاهيميّة أوروبيّة، ووصف التّراكيب النّحويّة المختلفة على أنها «شاذّة» أو «غير منطقيّة». وأصبحت هذه المعاجم هي السّلطة «العلميّة» على اللّغة، ما أسّس لهرميّة؛ حيث تكون لغة المُستعمِر هي المعيار الذي تُقاس عليه جميع اللّغات الأخرى[٣].

٤. إصلاح الكتابة: قطع الجذور الثّقافيّة

كان تغيير نظام الكتابة (من العربيّة إلى اللاّتينيّة، أو العكس) أداة جيوسياسيّة بالغة الأهميّة.

---

١ - على سبيل المثال: سُمّيت روديسيا في جنوب أفريقيا على اسم السّياسي البريطاني (سيسيل رودس- Cecil Rhodes)، واسمها الأصلي: زيمبابْويه (Zimbabwe)، وهو اسم يعود إلى إمبراطوريّة شونا (Shona) القديمة، وأعيد إليها اليوم. وسمّى البريطانيّون جزيرة سيلان بلغتهم (Ceylon)، بينما اسمها القديم بالسّنهاليّة: سري لانكا (Sri Lanka). أمّا مملكة بنين (Benin)، الأفريقيّة القديمة فقد أطلقوا عليها اسم: داهومي (Dahomey). وأطلقوا تسمية بومباي (Bombay) على مدينة مومباي بالهند، وهي نسبة إلى الآلهة المحلّيّة مومبا ديفي. وأيضًا، أطلقوا اسم بورما (Burma) على مملكة ميانمار (Mianmar) القديمة. وأطلقوا اسم ساحل الذّهب (Gold Coast) على إمبراطوريّة غانا الأفريقيّة العريقة.

2 - Bhabha, Homi K., The Location of Culture, pp. 66-84.

3 - Rafael, V.L., Contracting Colonialism, 110-134.

أ. في آسـيا الوسطى تحت الحُكم السّوفيتي: جرى فرض التّحوّل من الأبجديّة العربيّة إلى اللاّتينيّة في العشرينيات (جزء من سياسـة «كورنيزاتسيا»[1] Коренизация أي التّجذير)، ثم إلى السّيريليّة في الثّلاثينيات. كان الهدف المُعلن هو «محو الأمّيّة»، ولكن الهـدف الحقيقي كان قطع صِـلات المنطقة بالعالم الإسـلامي، والنّصوص العربيّة، والتّركيّة العُثمانيّة، وإعادة ربطها ثقافيًا وإيديولوجيًا بموسكو[2].

ب. في تركيـا: كان تحويـل الأبجديّة من العربيّـة إلى اللاّتينيّة عـام ١٩٢٨ تحت حكم أتاتورك جزءًا من مشروع عَلمنة وتحديث قسري، هدف إلى قطع الصّلة مع الماضي العُثماني والإسلامي، والتّوجّه صوب أوروبا.

ج. في المُسـتعمرات الفرنسـيّة في أفريقيا: شـجّعت الإدارة على «لاتنة» كتابة اللّغات المحليّة، بدلاً من اسـتخدام الأبجديّة العربيّة، في محاولـة للحدّ من النّفوذ الثّقافي والدّيني العربي الإسلامي[3].

رابعًا: دراسات حالات متعمّقة: تشريح لتجلّيات الهيمنة وأشكال المقاومة

١. الهند البريطانيّة: هندسة طبقة وسيطة «إنكليزيّة اللّسان»

يعدّ نصُّ (توماس ماكـولي-Thomas Macaulay) (١٨٣٥) بمثابة إعلان صريح لمشروع

1 - Kinville, Patrick James, Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. p. 6.

Liber, George, "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.

2 - Kinville, Patrick James, Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. p. 6.

Liber, George, "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.

3 - Truth and Reconciliation Commission of Canada. (2015). Honouring the Truth, Reconciling for the Future: Summary of the Final Report, pp. 234-240.

حكمٍ باللّســان: «نقترح تكوين طبقة من الأشــخاص يكونون هنودًا في الدّم واللّون، ولكنّهم إنكليز في الذّوق والرّأي والعقل والأخلاق». هذه الجملة - التي صارت شعارًا - تضغط تاريخًا طويلاً لقانــونٍ تعليميٍّ، جعل اللّغة الإنكليزيّــة بوّابة القضــاء والإدارة والتّعليم العالي[1]. في الواقع، لم تختفِ اللّغات البنغاليّة والهنديّة والسّنسـكريتيّة، لكنها حُبست في فضاءات البيت والطّقس الدّيني والذّاكرة. وقادت سياسةُ «التّعليم العالي بالإنكليزيّة/ والتّعليم الابتدائي باللّغة المحلّيّة» إلى تراتُب معرفيّ يُســاوي التّقدّم بلســان المركز، ويعكس نفســه في سوق العمل. والملاحظ هنا أنّ تفكّك الاســتعمار السّياسي لم يُنهِ هذه البنيّة؛ إنما كانت الدّولة الوطنيّة هي التي أعــادت توزيع الأدوار داخل نظــام إيكولوجي معقّد، وظلّت الإنكليزيّة رأســمالاً رمزيًّا واقتصاديًّا مرتفع العائد.

٢. الجزائر: ذروة الاستعمار اللّغوي والصّراع على الهويّة

يمثّل المرســوم الفرنسي لعام ١٩٣٨م الذي صنّف اللّغــة العربيّة لغة أجنبيّة في أرض عربيّة ذُروة المشروع الاســتعماري. كانت السّياســة اللّغويّــة جزءًا من مشروع اســتيطاني - إدماجي يهدف إلى خلق «فرنســيين مُســلمين». أُغلق العديد من المدارس والزّوايــا القرآنيّة التي كانت مراكز للتّعليم بالعربيّة. وبالمثل، جرى تهميش العربيّة الفصحى وحوصرت في المجال الدّيني فقط، بينما لم تحظَ اللّهجات العاميّة بأيّ تطوير. وهكذا أصبحت الفرنســيّة لغة التّقدّم والعلوم والإدارة[2]. وبعد الاســتقلال، اصطدمت موجات «التّعريــب» الطّموحة بوجود جيل كامل من النّخب المكوّنة بالفرنســيّة، وبحقيقة أنّ الفرنسيّة كانت متجذّرة في الإدارة والاقتصاد العالمي. بالنّتيجــة، أدّى هــذا إلى حالة من «الازدواجيّــة الصّراعيّة»؛ حيث أصبحت الفرنســيّة والعربيّة علامتين (markers) لهويّتين وطبقتين اجتماعيتين مُتمايزتين، بل ومُتخاصمتين أحيانًا. وتُظهر حالة الجزائر، بوجــه الخصوص، كيف أنّ الهيمنة اللّغويّة تخلق إرثًا معقّدًا يســتمرّ لعقود بعد نهاية الاستعمار السّياسي.

1 - Macaulay, T.B., Minute on Indian Education (1835), pp. 1-5.

2 - Ageron, C.R., Modern Algeria: A History from 1830 to the Present, pp. 87-89, 104-105.

٣. المدارس الدّاخليّة لأميركا الشّماليّة وأُستراليا: إبادة ثقافيّة

كانت سياسات «استيعاب» السّكّان الأصليين في هذه البلدان من أكثر السّياسات قسوة. لم يكن الهدف هو إضافة لغة، بل كان استبدالاً كاملاً للهويّة. جرى منع الأطفال من التّحدّث بلغاتهم تحت طائلة العقوبة الشّديدة. وتمّ تعليمهم احتقار ثقافة آبائهم ووصفها بالهمجيّة. تسبّب هذا النّظام في صدمة نفسيّة جماعيّة عابرة للأجيال (Trauma Intergenerationnel). وبديهيّ أنّ فقدان اللّغة يعني فقدان الرّوابط مع الأسرة، والمعرفة التّقليديّة المتعلّقة بالطّب والنّباتات، والطّقوس الرّوحانيّة، وفلسفة الحياة. ومن نافل القول إنّ هذا الانقطاع الثّقافي له دومًا آثار مدمّرة على الصّحّة النّفسيّة، والتّماسك الاجتماعي لهذه المجتمعات حتى اليوم[١].

٤. ويلز وإيرلندا: الاستعمار اللّغوي في قلب الإمبراطوريّة

لم تكن ممارسات الهيمنة اللّغويّة حُكرًا على المُستعمرات البعيدة، بل مورست داخل الجزر البريطانيّة نفسها. في ويلز، انتشرت «اللّوحة الويلزيّة» القائلة: (Welsh Not) في القرن التّاسع عشر؛ حيث كان يُجبر التّلميذ الذي يُضبط، وهو يتحدّث بلغته الأمّ، على تعليق لوحة خشبيّة على عنقه كُتب عليها: «W.N.» التي تعني: Welsh Not (لا تتحدّث الويلزيّة). كان على هذا التّلميذ أن ينقل اللّوحة إلى أيّ زميل آخر يضبطه وهو يتحدّث الويلزيّة. في نهاية اليوم، كان حامل اللّوحة الأخير يتعرّض للعقاب البدني. هذه الممارسة، التي كانت جزءًا من سياسة «التّعليم الإنكليزي»، نجحت في خلق شعور عميق بالعار والدّونيّة تجاه اللّغة الويلزيّة، وكادت تقضي عليها[٢]. على مرّ السّنين، أدّت حملات المُجتمع المدني والنّضال السّياسي الطّويل إلى تحوّل جذري. ثمّ في عام ١٩٩٣ صدر «قانون اللّغة الويلزيّة» (Welsh Language Act 1993) الذي منح اللّغة وضعًا مساويًا للإنكليزيّة في الحياة العامة. واليوم، نرى أنّ التّعليم ثنائي اللّغة قد أضحى أمرًا شائعًا، وهناك قناة تلفزيونيّة ناطقة بالكامل بالويلزيّة (S4C). وهكذا، تُظهر حالة

1 - Khalid, Adeeb, The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia, pp. 156-180.

2 - Davies, J. The Welsh Language: A History, pp. 112-118.

ويلز كيف يمكن للسّياسات التّقدّميّة والإرادة السّياسيّة عكس آثار الاستعمار اللّغوي، وإحياء لغة كانت على حافّة الانقراض.

٥. شرق أفريقيا: السّواحليّة أداة لتحرير لغوي ما بعد الاستعمار

اتخذت تنزانيا، تحت قيادة (جوليوس نيريري-Julius Kambarage Nyerere)، مسارًا فريدًا ومختلفًا. فبدلاً من تبنّي الإنكليزيّة لغة وحيدة للدّولة، جرى اعتماد اللّغة السّواحليّة (وهي لغة من زُمرة البانتو (Bantu)، محليّة، ومُعرّبة، وغنيّة بالمفردات العربيّة) لغة رسميّة للتّعليم الأساس، والإدارة، والقضاء. كان هذا القرار سياسيًا بامتياز. هدف إلى خلق هويّة وطنيّة موحّدة تتخطى الانقسامات القبليّة، وضمان عدالة الوصول إلى التّعليم والمشاركة السّياسيّة لأكبر شريحة ممكنة من السّكان. كما كان رفضًا للتّراتبيّة اللّغويّة الاستعماريّة التي وضعت الإنكليزيّة في القمّة[1]. اليوم، لا تزال الإنكليزيّة تحتلّ مكانة مهمّة في التّعليم العالي والتّجارة الدّوليّة، ما يخلق توتّرًا مشابهًا لما حدث في أماكن أخرى. ومع ذلك، يبقى نموذج تنزانيا دليلاً عمليًا على إمكانيّة بناء دولة عصريّة دون جعل لغة المُستعمِر السّابق هي المحور الوحيد، مؤكّدًا أنّ «الكونيّة» يمكن أن تتحقّق بلغة محلّيّة.

٦. سياسات الحرف: السّيرلة واللّاتنة والتّعريب بوصفها خرائط ولاء جيو - ثقافيّة

كان تغيير نظام الكتابة أداة جيوسياسيّة بالغة الأهميّة لفصل المجتمعات عن جذورها الثّقافيّة وربطها بمتروبول جديد. في آسيا الوسطى تحت الحكم السّوفييتي، جرى فرض التّحوّل من الأبجديّة العربيّة إلى اللّاتينيّة في العشرينيات (بوصفها جزءًا من سياسة «كورنيزاتسيا»[2]

1 - Ali A. Mazrui & Alamin M. Mazrui, The Power of Babel: Language and Governance in the African Experience, pp. 101-115.

2 - Kinville, Patrick James, Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. p. 6.

Liber, George, "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.

Коренизация أو التّجذير)، ثم إلى السّيريليّة (والأصحّ تسميتها: الكيريلّيّة) في الثّلاثينيات. كان الهدف المُعلن هــو «محو الأميّة»، ولكن الهدف الحقيقي كان قطع صلات المنطقة بالعالم الإسلامي والنّصوص العربيّة والتّركيّة العُثمانيّة، وإعادة ربطها ثقافيًا وإيديولوجيًا بموسكو[1]. وفي تركيا، كان تحويل الأبجديّة من العربيّة إلى اللاّتينيّة عام ١٩٢٨ تحت حكم (أتاتورك- Atatürk) جزءًا من مشروع علمنة وتحديث قسري، هدف إلى قطع الصّلة مع الماضي العثماني والإسلامي، والتّوجّه صوب أوروبا، وهو قرار لا يزال يؤثر على الهويّة التّركيّة حتى اليوم. وفي المُســتعمرات الفرنسيّة في أفريقيا، شجّعت الإدارة على «لاتنة» كتابة اللّغات المحلّيّة، بدلاً من استخدام الأبجديّة العربيّة، في محاولة للحدّ من النّفوذ الثّقافي والدّيني العربي الإسلامي، وتعزيز التّبعيّة لـ باريس[2].

٧. أميركا اللاتينيّة: محو لغات وثقافات محلّيّة إلى الأبد

أمّا في أميركا اللاتينيّة تحت الحُكم الإسباني، فقد اتّخذت الهيمنة اللغويّة طابعًا دينيًّا وثقافيًّا متشــابكًا؛ حيث مُحيت لُغــات المايا والكيتشــوا تدريجيًا عبر تحويلها إلى «شــعائر وثنيّة» في الخطاب الكنسي، بينما أصبحت الإســبانيّة لغة الخلاص الدّيني والاندماج الاجتماعي[3]. وقد أدّى هذا إلى تراجع حادّ في استخدام اللّغات الأصليّة، لدرجة أنّ بعضها انقرض تمامًا، كما وثّق مــان (عــام ٢٠٠٥) في تحليله لآليّات الإبادة الثّقافيّة في المكســيك[4]. وفي كتابه الذي يحمل عنوان: (١٤٩١)، يرســم هذا الباحث الأميركي (تشــارلز مان- Ch. Mann) صورة للحضارات الأميركيّة قبل كولومبوس، وهو كتاب محوري مهمّ لفهم «ما جرى محوه» أو تشويهه من خلال عمليّة الاستعمار واللّغات التي فرضها.

1 - Khalid, Adeeb, The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia, pp. 156-180.

2 - Khalid, A., The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia, pp. 156-180.

3 - Mignolo, Walter D. Local Histories/Global Designs: Coloniality, Subaltern Knowledges, and Border Thinking., pp. 78-80.

4 - Mann, Charles C. 1491: New Revelations of the Americas Before Columbus, p. 203.

٨. الإمبراطوريّة البرتغاليّة: التّنافس مع إسبانيا على محو ثقافات الشّعوب

وفي الإمبراطوريّة البرتغاليّة، امتدّت هذه السّياسات من البرازيل إلى موسامبيق[١] (Moçambique) (تسمّى بالإنكليزيّة: موزمبيق) وتيمور الشّرقيّة (تيمور ليشتِه Timor Leste)؛ حيثُ استُخدمت البرتغاليّة باعتبارها أداة لخلق «نخبة مُستَوطنة» موالية للاستعمار. ففي موسامبيق، مثلًا، حُظرت اللّغات المحليّة مثل الإيماكوا في الفضاءات الرّسميّة، بينما أصبحت البرتغاليّة شرطًا للتّوظيف في الإدارة الاستعماريّة[٢]. وقد خلّف هذا إرثًا معقّدًا حتى بعد الاستقلال؛ حيث بقيت البرتغاليّة مُهيمنة على النّخب السّياسيّة والثّقافيّة، كما يلاحظ الكاتب الموسامبيقي (ميا كوتو-Mia Couto) (٢٠١٦) في تحليله للهويّة الهجينة في بلاده[٣].

٩. الفيليبين: تبعيّة ثقافيّة مُستدامة لإسبانيا

حتى في الفيليبين؛ حيثُ فشلت اللّغة الإسبانيّة في الانتشار بين العامّة بسبب محدوديّة النّظام التّعليمي الكنسي، لكنّها أصبحت علامة على الانتماء إلى النُّخبة المُستَعبْدَة[٤]. وقد عمّق هذا الفجوات الطبقيّة وأضعف التّماسك الاجتماعي، كما يشير (أندرسون) (١٩٩١) في تحليله لتشكيل الهويات الوطنيّة في ظل الاستعمار[٥]. ويُلاحظ إلى اليوم إصرار المواطنين الفيليبينيين على تسمية أبنائهم بأسماء مركّبة من اسم بلغة التگالوگ (Tagalog) واسم أوسط إسباني، كأنه دلالة على رقيّ زائف.

---

١ - هكذا يُلفظ اسم هذه الدّولة على السّاحل الشّرقي لأفريقيا باللّغة البرتغاليّة، وحرّفه الإنكليز إلى موزَمبيق. وأصل الاسم يعود إلى حاكمها قبل الاحتلال البرتغالي، نحو عام ١٥٠٠ م، وهو تاجر عُماني اسمه: مُوسى بن بيق، فعُرفت بموسى مْبيق، ومنها أتى الاسم البرتغالي.

2 - Vicente, Filipa Lowndes. “Other Orientalisms: India Between Florence and Bombay, 1860-1900”, p. 91.

3 - Couto, Mia. ‘A Língua Portuguesa e a Construção da Identidade Moçambicana’. In Lusofonia e Interculturalidade: Promessa e Travessia , pp. 120-122.

4 - Rafael, Vicente L. Contracting Colonialism: Translation and Christian Conversion in Tagalog Society Under Early Spanish Rule, pp. 34-36.

5 - Anderson, Benedict. Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism, p. 48.

١٠. نماذج من الهيمنة والمقاومة والإحياء:

مثّلت السّياسات اللّغويّة الاستعماريّة ركيزةً جوهريّة في مشاريع الهيمنة؛ حيث لم تكن مجرّد أدوات اتّصال، بل آليّات لتفكيك الوعي الجمعي وإعادة تشكيله وفق رؤية المُستعمِر. ففي غرب إفريقيا الفرنسيّة، جرى توظيف اللّغة بوصفها جزءًا من «المهمّة الحضاريّة» (Mission Civilisatrice)، التي روّجت للفرنسيّة باعتبارها لغة للتّحضّر والمعرفة، بينما نُظر إلى اللّغات المحليّة مثل الولوفيّة (Wolof) والبامبارا (Bambara) على أنها «همجيّة» أو «غير قادرة على نقل الأفكار الحديثة»[١]. وقد تجلّى هذا المشروع عبر نظام تعليمي فرض الفرنسيّة لغة حصريّة في المدارس الرّسميّة، وعاقب التّلاميذ الذين يستخدمون لغاتهم الأمّ بـ «علامة العقوبة» (Signe de punition)، ما أدى إلى قطيعة معرفيّة بين الأجيال وتراثها[٢].

ومنذ فترة سبعينيات القرن العشرين، قادت مجتمعات السّكان الأصليين حركات قويّة لإحياء اللّغة، مدفوعة بإرادة لا تتزعزع لاستعادة الهويّة والشّفاء من الصّدمة التّاريخيّة. وممّا شملته هذه الجهود:

أ. برامج الغمر اللّغوي (Language Immersion Programs): إنشاء رياض أطفال ومدارس كاملة يجري التّدريس فيها حصريًا باللّغة الأصليّة.

ب. توثيق اللّغات المهدّدة: العمل مع اللّغويين المُجتمعيين لتسجيل آخر النّاطقين باللّغات من كبار السّن.

ج. التّكنولوجيا باعتبارها أداةً مُساعدة: استخدام التّطبيقات الذّكيّة ومنصّات التّواصل الاجتماعي لنشر اللّغة.

د. النّضال القانوني والسّياسي: تحقيق انتصارات تشريعيّة كبيرة، مثل «قانون اللّغات الأصليّة الأميركيّة (١٩٩٠)» و«الحقيقة والمصالحة (٢٠٠٨)» في كندا.

ه. إحياء الطّقوس والتّقاليد: ربط اللّغة بممارسات حياتيّة ذات معنى.

هذه الحركات هي شهادة حيّة على القُدرة على الصّمود. والرّائع في الأمر، أنّ هذه الشّعوب نجحت في تحويل اللّغة من أداة استُخدمت لقمعهم إلى سلاح للقوّة والهويّة.

1 - Diagne, Souleymane Bachir. (2016). 'The Language of Portuguese Colonialism', p. 45.

2 - Ager, Dennis. 'Language Policy in Britain and France: The Processes of Policy', pp. 112-114.

خامسًا: الحاضر الرّقمي: الاستعمار الخوارزمي وفجوة البيانات اللّغويّة

يمثّل العصر الرّقمي فصلاً جديدًا ومعقّدًا في تاريخ الهيمنة اللّغويّة. فلقد انتقلت الآليات من المؤسّسات الماديّة (المدرسة، المحكمة) إلى الخوارزميات ومنصّات الإنترنت التي تحكم الفضاء الافتراضي.

١. تحيّز البيانات والخوارزميات:

تُدرَّب نماذج الذّكاء الاصطناعي (مثل نماذج اللّغة كبيرة الحجم - LLMs مثل ChatGPT، وخدمات التّرجمة الآليّة، وأنظمة التّعرّف على الصّوت) على مجموعات بيانات هائلة. لكنّ هذه البيانات غير متوازنة بشكل صارخ؛ فهي تهيمن عليها اللّغة الإنكليزيّة واللّغات الأوروبيّة الرّئيسيّة. على سبيل المثال، قد يجري تدريب نموذج على تريليونات من الكلمات الإنكليزيّة، ولكن فقط على بضعة ملايين من الكلمات بلغة مثل الأمهريّة من إثيوبيا أو اليوروبا من نيجيريا. وتكون النّتيجة: تفاوتًا أدائيًا هائلاً. تكون جودة التّرجمة الآليّة من الإنكليزيّة إلى الفرنسيّة ممتازة، بينما تكون التّرجمة من الإنكليزيّة إلى السّواحليّة أو الهُوسا مليئة بالأخطاء والسّخافات. ونجد أنظمة التّعرّف على الصّوت تفشل في فهم اللّهجات غير القياسيّة أو اللّغات «الأقلّ شيوعًا». علينا أن نلاحظ هنا أنّ هذا ليس فشلاً تقنيًا محايدًا، بل هو انعكاسٌ للتّفاوت التّاريخي والاقتصادي العالمي. وعندما تكون أدوات العمل والتّعلّم والاتّصال الأساسيّة في القرن الحادي والعشرين (محرّكات البحث، المساعدات الذّكيّة، منصّات التّعلّم عبر الإنترنت) تعمل بشكل سيّئ بلغتك، فإنك تُستبعد تلقائيًا من الفرص الاقتصاديّة والمشاركة المعرفيّة العالميّة. فهذه بالضّبط هي «الفجوة الرّقميّة اللّغويّة»[1].

٢. استعمار البيانات (Data Colonialism):

على غرار استخراج الاستعمار الكلاسيكي المعادن والقطن، يستخرج الاستعمار الرّقمي

1 - Birhane, A., Algorithmic Colonization of Africa, pp. 389-392, 400-405.

البيانات من المستخدمين حول العالم؛ إذ يجري جمع بيانات المُستخدِمين النّاطقين بالعربيّة أو الهنديّة أو البرتغاليّة من قبل الشّركات التّكنولوجيّة العملاقة، مثل (Google, Meta, Microsoft)، التي تقوم بمعالجتها وتحليلها لتحسين خدماتها. ومع ذلك، فنادرًا ما تستفيد هذه المجتمعات استفادةً كاملةً من استخراج البيانات. فالقيمة المُولَّدة - من خلال خوارزميات أفضل، وإعلانات مُوجَّهة، ورؤى سوقية - تعود بالأساس إلى الشّركات والاقتصادات التي توجد فيها مقرّاتها الرّئيسية (الولايات المتّحدة والصّين). وهذا يُنشئ شكلاً جديدًا من التّبعية ونقل الثروة، يُحاكي الأنماط الاستعمارية الكلاسيكية[1].

٣. الهيمنة الثّقافيّة عبر منصّات الإنترنت:

تقوم خوارزميات منصّات، مثل يوتيوب، وفيسبوك، وتيكتوك، بتفضيل المحتوى الذي يولّد تفاعلاً أعلى، والذي غالبًا ما يكون بلغات مُهيمِنة أو بلغات محلّيّة، ولكن بأسلوب يرضي الذّوق الخوارزمي (الألغوريثمي) الخاضع لتأثير العولمة. وهذا يمكن أن يؤدّي إلى تآكل الأشكال الثّقافيّة والتّعبيريّة المحليّة الأصيلة لصالح محتوى موحّد ومعولم. تفرض المنصّات معاييرها التّقنيّة واللّغويّة. على سبيل المثال، قد لا تدعم بعض أنظمة التّرميز الموحّد (Unicode) بشكل كافٍ بعض الأحرف أو علامات التّشكيل في اللّغات النّادرة، ما يجبر المُستخدِمين على «التّكيّف»، أو التّخلي عن استخدام لغتهم بشكل صحيح.

سادسًا: نحو عدالة لغويّة: إطار لكونيّة متعدّدة

تتطلّب مواجهة هذا الإرث المزدوج (التّاريخي والرّقمي) أكثر من مجرّد إدانة. بل إنها تتطلّب بناء أجندة عمليّة للعدالة اللّغويّة تقوم على مبدأ «الكونيّة المتعدّدة» – الاعتراف بأنّ الإنسانيّة يمكنها تحقيق تقدّم وتواصل عالمي من خلال لغات متعدّدة وليس لغة واحدة مُهيمِنة.

1 - Birhane, A., Algorithmic Colonization of Africa, pp. 389-392, 400-405.

١. في مجال السّياسات التّعليميّة:

أ. تعميم نموذج التّعليم متعدّد اللّغات القائم على اللّغة الأم: اختصارًا[١]: (MTB-MLE) يجب أن يبدأ التّعليم الرّسمي باللّغة الأمّ للطّفل، لضمان فهم المفاهيم الأساس وتطوير مهارات التّفكير النّقدي. ثم يجري إدخال اللّغة الوطنيّة واللّغات الدّوليّة (مثل الإنكليزيّة) بشكل تدريجي باعتبارها مادّة دراسة، وليست وسيلة أساس لبناء التّعليم. تُظهر الدّراسات بوضوح أنّ هذا النّهج يؤدّي إلى نتائج تعليميّة أفضل بالمُجمل[٢].

ب. تطوير مناهج محليّة مُزيلة للاستعمار: ينبغي أن تعيد مناهج التّاريخ، والأدب، والعلوم الاجتماعيّة، إدماج المعارف المحليّة، وتاريخ المقاومة، ورواية السّكان الأصليين للأحداث[٣].

٢. في مجال السّياسات القانونيّة والمؤسّسيّة:

أ. الاعتراف الدّستوري والقانوني بالحقوق اللّغويّة: يجب أن تكفل الدّول الحق في الحصول على الخدمات العامّة (الصّحّة، القضاء، الإدارة) بلغات المجتمع المحلّي. وهذا يشمل توفير مترجمين معتمدين في المحاكم وطباعة النّماذج الحكوميّة بعدّة لغات[٤].

ب. دعم إنتاج المحتوى والنّشر: تمويل دور النّشر والمجلات والبرامج الإذاعيّة والتّلفزيونيّة التي تعمل باللّغات المحلّيّة. وإنشاء صندوق عام لدعم التّرجمة من وإلى هذه اللّغات.

---

١ - اختصار عبارة: Mother Tongue-Based Multilingual Education.

2 - UNESCO, Education in a Multilingual World.

3 - Linda Tuhiwai Smith, Decolonizing Methodologies (London: Zed, 1999); Sir Apirana Ngata,.

4 - Tove Skutnabb-Kangas, Linguistic Genocide in Education—or Worldwide Diversity and Human Rights?

٣. في مجال البحث والتّكنولوجيا:

أ. دعـم تطويـر تقنيّـات اللّغـة للغـات ذات المـوارد المحـدودة (Low-Resource Languages): يجب على الحكومات والمؤسّسـات الأكاديميّة الاستثمار في إنشاء مجموعات بيانات مفتوحة المصدر (Open-Source Datasets) كبيرة ونظيفة للّغات المحليّة. وتشجيع تطوير أدوات الذّكاء الاصطناعي المفتوحة المصدر، والمُعالجة الطّبيعيّة للّغة[١] (NLP) لهذه اللّغات.

ب. ربط التّقويم الأكاديمي بالجودة وليس باللّغة: يجب على المجلّات والهيئات المانحة للدّرجات العلميّة فصل تقويم جودة البحث عن شرط نشره بلغة بعينها (كالإنكليزيّة). بل ينبغي تشـجيع النّـشر باللّغات الوطنيّـة، وتقديم خدمات ترجمـة عالية الجودة للأبحاث المهمّة.

٤. في حوكمة الفضاء الرّقمي:

أ. التّصميم متعدّد اللّغات منذ البدايّة (Multilingual-by-Design): يجب على مطوّري التّكنولوجيا اعتبار تعدّد اللّغات مطلبًا رئيسًا، وليس إضافة لاحقة. وهذا يشمل دعم ترميز موحّـد (Unicode) كاملاً، وتوطين الواجهات، وضـمان عمل الخوارزميات بشكل عادل عبر اللّغات المختلفة.

ب. الرّقابة المفتوحة والمُسـاءلة: تطوير أُطر شـفّافة لاختبار تحيّز الخوارزميات اللّغويّة وتحليلهـا. ويجب أن تكون الشّركات التّقنيّة مسـؤولة عن الإبلاغ عن أداء منتجاتها في اللّغات المختلفة، وإظهار خُطط لتحسينه[٢].

---

١ - اختصار عبارة: Natural Language Processing.

2 - Birhane, A., Algorithmic Colonization of Africa, pp. 389-392, 400-405.

خاتمة:

ظلّ المشروع الاستعماري اللّغوي، ولا يزال، أحد أكثر أشكال السّيطرة عُمقًا واستمرارًا؛ لأنه يستهدف الأدوات ذاتها التي نفكّر بها، ونسمّي بها العالم، ونبني بها واقعنا. ومن ساحات المدارس، حيث كان يُعاقب الأطفال على التّحدّث بلغة أمّهاتهم، إلى الخوارزميات التي تمحو التّنوّع اللّغوي تحت ذريعة الكفاءة، يبقى المنطق واحدًا ومتشابهًا بشكل لافت: إقامة تراتبيّة؛ حيثُ تُعتبر طرقٌ معينة في الكلام «شرعيّة»، بينما يجري تهميش أخرى.

لكنّ هذه التّراتبيّة، كما تُظهر حالات ويلز وتنزانيا وحركات إحياء اللّغة العديدة، ليست حتميّة. بل من المؤكّد أنّ المقاومة ممكنة... وهي تأخذ شكل معارك قضائيّة، وإصلاحات تعليميّة، وابتكارات تكنولوجيّة، والأهمّ من ذلك، الفعل اليومي المتمثّل في الاختيار المتعمّد للحديث، والإبداع والمقاومة باللّغة الخاصّة.

وعلينا أن نؤكّد هنا أمرًا حيويًّا: العدالة اللّغويّة ليست ترفًا ثقافيًا... بل إنها شرطٌ أساس للعدالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة الكاملة. وهي تعني الاعتراف بأنّ الإنسان لا يمكن أن يكون حرًّا إذا كانت لغته مكبّلة. إنّ بناء «كونيّة متعدّدة» هو المشروع المضادّ للاستعمار اللّغوي: فهو لا يقوم على استبدال لغة عالميّة واحدة بأخرى، بل على خلق عالم يمكن فيه للُغات متعدّدة أن تزدهر بوصفها قنوات ناقلة لقيم عالميّة في الكرامة والمعرفة والتّواصل. وهو يتعلّق بضمان ألّا يكون المستقبل الرّقمي واقتصاد المعرفة الذي يُمكّنه حوارًا أحاديًا، بل محادثة حقيقيّة متعدّدة اللّغات؛ حيث يكون للجميع الحقّ في الكلام، وأن يُسمَعوا باللّغة التي يختارونها.

المصادر والمراجع

- مالك بن نبي: شروط النّهضة، دار الفكر، دمشق، لا ط، لا ت.
- Althusser, Louis. (1971). "Ideology and Ideological State Apparatuses." In Lenin and Philosophy and Other Essays. New York: Monthly Review Press.
- Anderson, Benedict. (1983). Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism (Revised Edition). London: Verso.
- Ager, Dennis. (1996). 'Language Policy in Britain and France: The Processes of Policy'. London: Cassell.
- Ageron, Charles-Robert. (1991). Modern Algeria: A History from 1830 to the Present. London: Hurst.
- Bhabha, Homi K. (1994). The Location of Culture. London: Routledge.
- Birhane, Abeba. (2020). "Algorithmic Colonization of Africa." SCRIPTed 17, no. 2.
- Bourdieu, Pierre. (1991). Language and Symbolic Power. Ed. John B. Thompson. Cambridge: Polity Press.
- Bourdieu, Pierre. (1977). "The Economics of Linguistic Exchanges." Social Science Information 16, no. 6.
- Brutt-Griffler, Barbara. (2002). World English: A Study of Its Development. Clevedon: Multilingual Matters, 2002.
- Césaire, Aimé. (1972). Discourse on Colonialism. New York: Monthly Review Press.
- Couldry, Nick, and Ulises A. Mejias. (2019). The Costs of Connection.

Stanford: Stanford University Press.

- Couto, Mia. (2016). 'A Língua Portuguesa e a Construção da Identidade Moçambicana'. In Lusofonia e Interculturalidade: Promessa e Travessia (pp. 115130-). Edited by Anthony Soares et al. Braga: Centro de Estudos Humanísticos, Universidade do Minho.
- Davies, Alan. (2003). The Native Speaker: Myth and Reality. Clevedon: Multilingual Matters.
- Davies, Janet. (1993). The Welsh Language: A History. Cardiff: University of Wales Press.
- Diagne, Souleymane Bachir. (2016). 'The Language of Portuguese Colonialism'. In The Postcolonial Contemporary: Political Imaginaries for the Global Present (pp. 4052-). Edited by Jini Kim Watson & Gary Wilder. New York: Fordham University Press.
- Fanon, Frantz. (1967). Black Skin, White Masks. Trans. C. L. Markmann. New York: Grove Press.
- Foucault, Michel. (1977). The Archaeology of Knowledge. New York: Pantheon, 1972; Discipline and Punish. New York: Vintage.
- Khalid, Adeeb. (1998). The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia. Berkeley: University of California Press.
- Khosravi Shakib, Mohammad (2011). The position of language in development of colonization. Department of Persian Language and Literature, Human Science Faculty, Lorestan University, I. R. Iran.
- Kinville, Patrick James (2013). Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. Budapest: CEU eTD Collection. p. 6.

- Liber, George (January 1991). "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.
- Macaulay, T. B. (1835). "Minute on Education". Calcutta: Baptist Mission Press.
- Makoni, Sinfree, and Alastair Pennycook. (2007). Disinventing and Reconstituting Languages. Clevedon: Multilingual Matters.
- Mann, Charles C. (2005). 1491: New Revelations of the Americas Before Columbus. New York: Alfred A. Knopf.
- Mazrui, Ali A., and Alamin M. Mazrui. (1998). The Power of Babel: Language and Governance in the African Experience. Chicago: University of Chicago Press.
- Mignolo, Walter D. (2012). Local Histories/Global Designs: Coloniality, Subaltern Knowledges, and Border Thinking. Princeton: Princeton University Press.
- Mufwene, Salikoko S. (2001). The Ecology of Language Evolution. Cambridge: Cambridge University Press.
- Niranjana, Tejaswini. (1992). Siting Translation: History, Post-Structuralism, and the Colonial Context. Berkeley: University of California Press.
- Ngũgĩ wa Thiong'o. (1986). Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature. London: Heinemann.
- Phillipson, Robert. (1992). Linguistic Imperialism. Oxford: Oxford University Press.
- Pratt, R. H. (1892). Official Report of the Nineteenth Annual Conference of Charities and Correction.

- Rafael, Vicente L. (1993). Contracting Colonialism: Translation and Christian Conversion in Tagalog Society Under Early Spanish Rule. Durham, NC: Duke University Press.
- Said, Edward W. (1978). Orientalism. New York: Pantheon.
- Seidlhofer, Barbara. (2011). Understanding English as a Lingua Franca. Oxford: Oxford University Press.
- Skutnabb-Kangas, Tove. (2000). Linguistic Genocide in Education—or Worldwide Diversity and Human Rights? Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.
- Smith, Linda Tuhiwai. (1999). Decolonizing Methodologies: Research and Indigenous Peoples. London: Zed Books.
- Spivak, G. C. (1988). Can the Subaltern Speak? In C. Nelson & L. Grossberg (Eds.), Marxism and the Interpretation of Culture (pp. 271–313). University of Illinois Press.
- Trevelyan, Charles E. (1838). On the Education of the People of India. London: Longman.
- Truth and Reconciliation Commission of Canada. (2015). Canada's Residential Schools: The Final Report of the Truth and Reconciliation Commission of Canada, Vol. 1: The History, Part 1: Origins to 1939. McGill-Queen's University Press.
- UNESCO. (2003). Education in a Multilingual World. Paris: UNESCO.
- Vicente, Filipa Lowndes. (2007). "Other Orientalisms: India Between Florence and Bombay, 18601900-". Translated by Stewart Lloyd-Jones. New York: Columbia University Press.